# عقيدة الموحدين بين التشيع والاعتزال(*)

للدكتور شوقى ضيف

مؤسس عقيدة الموحدين ودولتهم : محمد بن تومرت، المولود بهرغة فى جبال درن ،موطن قبيلة مصمودة بالمغرب الأقصى سنة ٤٧١ للهجرة ، شبَّ مشتغلا بالعلم ، وارتحل فى طلبه سنة ٥٠١ ،ونزل الأندلس ودخل قرطبة لفترة قصيرة اتجه بعدها إلى المشرق ، ورحل إلى المهدية ثم الاسكندرية ، وحج ودخل العراق ، وأكبَّ فى بغداد على حلقات العلماء والنظار ، واستمع إلى أصحاب النحل والمذاهب من الشيعة والمعتزلة والأشعرية ، وفى سنة ٥١٠ اعتزم الرجوع إلى موطنه ، ومر بالإسكندرية وببعض البلدان المغربية ، وفى كل بلد كان يعقد لنفسه مجلس علم ووعظ ، ويأمر، بالمعروف وينهى عن المنكر مثيرا العامة، مما جعل بعض حكام البلدان التى مر بها يضيق به ، ويأمره بمغادرتها ، وكان بعيد الهمة ووقف على ضعف الخلافتين : العباسية فى بغداد والفاطمية فى القاهرة ، ونشأت فى نفسه فكرة الدعوة إلى خلافة فى المغرب يكون هو صاحبها ، وأخذ يجمع حوله بعض مريديه ممن لقيهم فى أوبته ، وتوسم فيهم عونه فى تحقيق فكرته ،مثل :عبد المؤمن بن على وأبى محمد البشير الونشريشى ، ولكن كيف يكون ذلك وخليفة المسلمين ينبغى أن يكون هاشميا ،مثل العباسيين ، أو علويا فاطميا ،مثل الفاطميين، وأكد أنه مثلهم : علوى فاطمى ، إذ ذكر له سلسلة نسب تصله بسليمان ، أخى إدريس الحسنى مؤسس الدولة الإدريسية بالمغرب الأقصى، التى حكمت من سنة ١٧٢ إلى سنة ٣١١ للهجرة ، والمؤرخون مختلفون فى صحة نسبه ، ونزل مدينة فاس سنة

(*) ألقى هذا البحث في الجلسة السادسة التى انعقدت صباح الأثنين ٢٧ من شوال سنة ١٤١٣ هـ الموافق ١٩ من إبريل سنة ١٩٩٣

٥١١ ولزم مسجـدا ظل يدرس فيه ويلقى الوعظ ،جامـعا حوله كثيـرين من مريديه عاملا بقوة معهم على الدعوة سرًّا له ،وأنه المـهـدى الذى تنتظره الأمـة ، يدل على ذلك أكبـر دلالة صَكٌّ احتفظ به داعيـتهم ومـؤرخهم ابن القطان ، كـتبـه سنة ٥١١ للقـاضى الجـذامى أولـه بعـد البسـملة والصلاة : « أقول وأنا محـمد بن عبد الله تومرت وأنا مـهدى آخر الزمـان » وتحول إلى مراكش سنة ٥١٤ يتظاهر بدراسة العلم والوعظ ، ويتـزيَّى بـزى الزهاد ، ويأمـر بالمعروف وينهى عن الـمنكر ، ولقى أمير المـرابطين على بن يوسف بن تاشـفـين فوعظه ،وعقد له مناظرة بينه وبين العلماء ، فبـزهم وأفحمـهم ومضى يدعـو سرا إلى الانتقاض على المرابطين ، وأحس بتشديد الرقـابة عليه ، فـخرج من مـراكش ونزل بتينملل ، وهناك أخـذ يدير دعوته كاشـفا القناع عن وجـهـه الحـقيـقى وأنه الإمـام المـهدى المنتظر ، ومـا توافى سنة ٥١٥ حـتى يكثـر أتباعـه ، فـيـعلن ثورته على المـرابطين فى شهر رمضـان وأنه المهدى المرتقب ، ويخطب فى أتباعه قائلا:

« الحمـد لله الفعـال لما يريد : . . وصلى الله على سيـدنا محمد ، المـبشر بالمهدى ، الذى يملأ الأرض قسطا وعدلا ، كمـا ملئت ظلما وجـورا ، يبعـثه الله إذا نُسخ الحق بالباطل ،وأزيل العدل بالجور، مكانه المـغـرب الأقـصى ، وزمنه آخـر الزمان ، واسمه : اسم للنبى عليه الصلاة والسلام ونسبه نسب النبى صلى الله تعالى وملائكتـه الكرام المقربـون عليه وسلم ، وقد ظهر جـور الأمراء ، وامتلأت الأرض بالفـسـاد ، وهذا آخـر الزمـان . والاسم الاسـم ، والـنـسب النـسـب ، والفـعـل الفـعل » .

ولما فرغ من خطبته بادر إليه مستشاروه العشرة الـمقدمون قائلين : هـذه الصفة لا توجد إلا فيك فأنت المهدى ، وبايعوه على ذلك وتتابع الناس يبايعـونه ، وانعقدت له البيعة بأنه المهدى المنتظر فى آخر الزمان ، وعظم صيـته ، وفرق دعاته فى القـبائل ،

وعلا أمـره وسمَّى كل من دخل فى بيعـته وصار من أتباعـه باسم الموحدين ، وألف لهم كتـابا فى التوحيد باللسـان البربرى ، وصار الخطبـاء على المنابر يقولون عنه : إنه الأمام المـعلوم والمهدى المعـصوم ، ودخل الناس فى طاعـته أفـواجا ، ورتَّب أتباعـه فى طبقات · ودعا جـهارا إلى خلع طاعـة المـرابطين لـشـيـوع المنكرات فى دولتهم ، وكان فقـهاؤهم يقتدون بالسلف فى ترك التـأويل لـلآيات التى قـد يفـيـد ظاهرها شبه الله بالمخلوقات مع تنزيه الله ونفى التشـبيه عنه والـتكييف ، ومع ذلك ادعى على المـرابطين أنهم مـجـسمـة لله كافرون ، ومـعاذ الله أن يكون المرابطون مجسـمين أو كفارا ، ومـعروف أنهم أهم دولة مغربية أدت للإسلام خدمات كبرى ، أولهـا : القضـاء على مـجوس برغـواطة بإقليم تامـسنا فى المـغرب الأقـصى ، إذ ظلوا يعيـثون فى هذا الإقليم فـسادا - منذ القرن الثانى الهجرى - حتى قضى عليهم المرابطون قضاء حاسـما فى منتصف القرن الخـامس الهجـرى واستـصرخـهم أمراء الطوائف بالأندلس لحـماية الإسـلام هناك وصد غـارات الإسبان فعـبروا إليهم تلبـية لصـوت الواجب وهزموا الإسـبان هزيمـة ساحـقة فى مـوقعة الزلاقـة المشـهورة ، وكمـا كان لهم جـيش ضخم فى مـراكش كان لهم جـيش مماثل فـى موريتانيـا نشر الإسلام بقوة فى غرب إفـريقيا ووسطها ، وبفضل البطل : أبى بكر بن عـمر ابن عم يوسف بن تاشفين. ، بـطل الزلاقة تحولت غانة كلها بلدا إسلاميا إلى اليوم · وظلم أن يقال عن هؤلاء المـجاهدين إنهم كـفار أو مجـسمة. على كل حال أخـذ ابن تومرت يدفع الموحـدين إلى منازلة المرابطين دون أن يكتب له عليـهم نصـر حـاسم ، إنمـا كُتب ذلك بعد وفاته - بفـترة غير قليلة - لخليفته عبد المؤمن ·

وكان ابن تومـرت من الدهاء والحنكة السـياسـية فى الـذروة ، فأسس عـقيـدة الموحدين وثبتها بقوة ، مـستضيئا بالنحل فى عـصـره ، وفى رأينا أن أهـم نحلتـين

استمد منهمـا الأسس لتلك العـقـيدة ؛ هما : التـشـيع والاعتـزال ، أما الأسس التى ترجع إلـى التـشـيع فـأربعـة هى : الإمامـية والمـهدوية والعـصمـة والتنظيم الطبقى ، ويرجع إلى الاعتـزال أساسان : هما التوحيـد والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ونـبـدأ بعـرض الأسس الأربعـة الأولى .

والأسـاس الأول : الإمـامـة ، وقـد مضى ابن تومرت يغـرس فى نفوس أتباعه ما عرفـه فى بغداد عن الإمام عند الشـيعة الاثنى عشـرية ، من أنه وريث الرسول ، وأنه حجة الله على عباده ، وأنه مطهَّر من الذنوب مـبَّرأ من العـيـوب ، وأنه معـدن القدس والطهارة والـتقوى والزهادة ، وأنه يعلم علم مـا كان ومـا يكون . ومن وفّى بعهـده فقـد وفى بعهـد الله . ومن نكث عهـده فقـد نكث عهد اللـه . ويقول ابن خلدون : إنه ألَّف لأتباعه كتابا فى الإمامة افتتحه بقـوله « أعز ما يُطلب » وصار هذا الافتتاح لقبـا للكتاب ، ومن قوله فيه عن الإمامة : إن اعتقادها واجب على الكافة . « وهى ركن من أركان الدين ، وعمدة من عمد الشريعة ، ومـامن زمان إلا وفيه إمام لله قائم بالحق فى أرضـه ، وأمره أمر الله ورسـوله ، وطـاعـتـه طاعة الله ورسـوله والانقـيـاد له انقـيـاد إلى الله ورسـوله ، وموافقـته موافقة لله ورسـوله ، ومرضاته مرضاة لله ورسـوله ، وموالاته موالاة لله ولرسوله ، وبه تكشف الظلمات ، وتدفع الأباطيل، وبمـوافـقـتـه تُنال السـعـادة ، وبطاعـته تنال البـركـات . والهجـرة إلى الإمام واجبة لا يحـول بينها وبين أحد من المـسلمين أهل ولا ولد ولا مـال ، ومن سمع بأمر المهدى وجبت عليه الهجرة إليه، ولا عذر له بوجه من الوجوه ، ويكفر من لم يصلِّ عليه، كما يكفر من لم يطعه » . ويقول المـراكشى فى المـعجب : بلغ من تعظيم المـصامـدة للمـهدى ابن تومـرت وطاعتـه ، أنه لو أمر أحدهم بقـتل أبيه أو أخيه أو ابنه ، لبادر إلى ذلك بغير إبطاء .

والأساس الثـانى ، الذى أوجب ابن تومرت على المـوحدين اعـتناقه هو : أنه المهـدى المنتظر فى آخـر الزمان ، الذى يملأ الأرض عدلا ، بعد أن ملئت جورا ، ولينقذهم مما هم فيه من الشرور والآثام ، ولينشر بينهم العـدالة التى لا تستطيع الأمة بدونها أن تعيش معيشة قويمة ومِنْ وَصْفِ ابن تومرت للمهدى فى كـتابه : « أعز ما يُطلب » أنه : « خصـه الله بما أودع فـيه من مـعـانى الهـــداية ... ولا ندَّ له فى الورى ، ولا من يعانده ،ولا من يخالفه ، ولا من يضـاده ، ولا من يكابره ولا من يعصيه ،ولا تصدر الأشياء إلا عن أمره . العلم بـه واجب ، والسـمع والطـاعـة له واجب ،واتباعه والاقتداء بأفعاله واجب ، والإيمان به والتـــصـــديق واجب على الكافـــة،والتـسليم له واجـب ، والرضـا بحكمـه واجب، والانقيـاد لكل ما قـضى واجب ، والرجوع إلى علمه واجب،واتباع سبيله واجب ، وسنته سنة الله ورسوله ، وواجبٌ طاعتـه فى السر والعـلانية ، وفى الظاهر والباطن ،وفى أمور الدين والدنيا ، وفى القليل والكثيـر ، والخفى والجلى ، والأدنى والأعلى ، وأمـرُ المهـدى حتم ، من خـالفه يقـتل ، لا دفع فى هذا الدافع ثبـت بثبـوت نصوص الكـتاب وقـواطع الشرع » . ويبدو أن فكرة المهدى المنتظر عند الشـيعـة نشأت من أن العلويين حـين فـاتتهم الخـلافة فى العـصرين :الأمـوى والعباسى ، أخذوا يروِّجون لفكرة المهدى العلوى ، الذى يأتى فى آخر الزمان لإقامة دعائم الحق والعـدل ، وشاعت الفكرة ، إذ قلما مرَّ عصر دون أن يخـرج فيه مهدى ويدعـو لنفـسـه ، وهى فكرة مـخطئـة، سيطرت على العـالم العربى فى العـصور الماضـية ، سـببـها انتظار مـصلح يصلح الأوضاع الفاسدة فى الأمـة ، وكان ينبغى أن تنشد الشعوب العربية المصلح فى ذات نفـسـهـا ، وأن لا تظـنه هبـةً من هبـات الزمن .

والأسـاس الشـيـعى الثـالث ، الذى أوجب ابن تومرت على الموحدين اعتناقه ،

هو : عصمة الإمام المهدى ، فهو - مثل الأنبياء - معصوم لا يقع منه خطأ ولا يرتكب معصية كبيرة ولا صغيرة ، وهو لذلك يرتفع عن مستوى البشر من حوله إلى مستوى أعلى رفيع ؛ لما ينتقل فى أصلابه من نور إلهى ، ينقّى روحه ويخليها من دواعى الشر ، وهو نور ظل ينتقل من آدم إلى أبنائه وأحفاده من الأنبياء والرسل ، وحظى الإمام على بن أبى طالب بشعاع منه ، ظل ينتقل فى أبنائه وأحفاده من الأئمة . وهى فكرة لا يؤيدها الإسلام وتعاليمه حتى فى الأنبياء - فقد ذكر القرآن عن آدم أنه ( عصى ربه فغوى ) ووكز موسى رجلا فقتله ، وقال : ( رب إنى ظلمت نفسى فاغفر لى ) وقال الله لرسوله المصطفى ﷺ : ( ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ) . ورأى ابن تومرت من الخير أن يشيع فكرة العصمة عند أتباعه ليحيطوه بضرب من الجلال والقدسية ، ويصدعوا دائما بما يأمر به دون أى مراجعة ، وكان إذا خرج شخص على رأى له يقتله ، ولا يبالى ، حتى لو كان من أقرب المقربين إليه ، لأن فى ذلك إنكارا لعصمته ، ويذكر ابن القطان من ذلك أنه أمر البشير الونشريشى بعملية تطهير فى فئة كبيرة من أتباعه بتينملل سنة ٥١٩، فكان يختبرهم ومن ثبت له اقتناعه بعقيدة الموحدين، قال : ردوه إلى اليمين إنه من أهل الجنة ، ومن تراءى له عدم اقتناعه، قال ردوه إلى اليسار إنه من أهل النار ، ويعلم أهل اليسار أنهم مقتولون ولا يفر منهم أحد ، وكان إذا اجتمع منهم كثيرون قتلهم قراباتهم ، يقتل الأب ابنه ، ويقتل الابن أباه ، والأخ أخاه . ولم يرتض أحد مستشاريه العشرة المقدَّمين عنده هذا القتل الجماعى وأنكره ، فأمر بقتله وصلبه، لأنه شك فى عصمته . وفى كتابه «أعز ما يطلب» : الإمام معصوم من الباطل والضلال والظلم والبدع والكذب، ويقول: المهدى معصوم فيما دعا إليه من الحق، لا يجوز عليه الخطأ فيه، ولا يكابر ولا يضاد ، ولا يدافع ولا يعاند ولا يخالف ولا ينازع

والأساس الشيعى الرابع ، الذى أخذ ابن تومرت الموحدين به ، لم يكن أساسا عقيديا ، ولكنه كان أساسا تنظيميا للدولة وأتباعه الموحدين، وهو أساس استضاء فيه، بما وضعه الخلفاء الفاطميون فى مصر لدولتهم الشيعية ، من نظام على رأسه الإمام الخليفة ، وتحته الحجج ، وهم اثنا عشر ، بعدد شهور السنة ، موزعين على البلدان الإسلامية ، ويتبعهم النقباء ، وهم أربعة وعشرون، والدعاة وكانوا يعدون بالعشرات · وكان الخلفاء الفاطميون يتخذون من الجامع الأزهر معهدًا لعلمائهم ، يلقون فيه محاضرات عن النحلة الفاطمية الإسماعيلية وأئمتها ونسبتهم إلى عالم القدس وواجبات الرعية إزاءهم ومهدويتهم وعصمتهم ، مغالين فى ذلك كله · ولم يأخذ ابن تومرت النظام الفاطمى بطبقاته كما وضعه الفاطميون ، إذ نقَّحه ونظمه بصورة أكثر دقة ، جعل فيها الإمام المهدى ، ومن يليه من خلفائه على رأس النظام ،ويتبعه مجلس استشارى من مريديه العشرة السابقين إلى اعتناق عقيدته أو دعوته، وسمى هذا المجلس : الجماعة، وهم أهل مشورته فى المسائل الكبرى ،وأضاف إليهم مجلسا ثانيا مؤلفا من خمسين داعيا ، اختارهم من مختلف القبائل المغربية التى بايعته ماعدا خمسة منهم اختارهم من الغرباء ، ويستشارون فيما وراء المسائل الكبرى من المسائل · وبجانب هذين المجلسين : الطلبة ، ويسميهم الفاطميون الدعاة ، ووضع لهم ابن تومرت منهجا لتعليمهم أسسَ العقيدة ونشرها فى القبائل وبين الناس - وكان قد وضع رسالة فى التوحيد ، ووضع بجانبها كتابه « أعز ما يُطلب » وكان يدرسهما للطلبة ، واتخذ لهم بيتا يربون فيه ويعلمون مبادىء العقيدة وتعليمها فى نشأتهم ، وتسمى هذه الطبقة من ناشئة الطلبة باسم الحفاظ ، ومنهم تتألف حين يشبّون طبقة الطلبة أو الدعاة ، وكانت تدرس لهم كتب ابن تومرت ، وكان يقوم عليهم شيخ يسمى :شيخ طلبة الحضرة ،

وكـان بعـضـهم يصل إلـى أرفع مناصب الدولة ، وبهـذا النظام المـحكم ثبت ابن تومرت دعـائم العقـيدة والدولة إلـى أبعد غاية .

وتعـرف ابن تومرت بدقـة - وهو فى بغداد - بجانب مـبادىء الشيعة الإمـامية على مبـادىء المعتزلة الخـمسة ، وهى : التوحـيد ، والعدل ، والوعد والوعـيد ، وأن مرتكـب الكبيـرة فى منزلة بين منزلتى الإيمان والكفـر والأمر بالمـعروف والنهى عن المنكر ، وجـعل المـبـدأين : الأول والأخير أساسيّين فى عقيدة الموحدين .

وشـوّش الأسـاس الأول طويلا على المـرابطين ، إذ نفـى عنهم التـوحـيـد ، وسمى أتباعه باسم الموحدين ، وغمضت هذه التسمية على المؤرخين المعاصرين من مستشرقين وعرب ، وزعموا أن المرابطين وفقهاءهم كانوا مجسمة ، كـما وصفهم ابن تومرت، وبّينت - منذ قليل - خطأ ذلك . وقالوا إنه أكد جانب التوحيـد ولم يتبينوا المعنى الذى يريده به ، ونرى أحد المؤرخين المعاصرين يقـول : « إن لقب الموحدين الذى أطلقـه ابن تومرت على أتبـاعه غـير ذى معنى لأن كل المسلمـين موحدون ولم يكن المرابطون أقل توحيدا من الموحـدين ، وكأنها تسمية أراد مـحمد بن تومرت بها أن يـوهـم الناس أن دعـوته تـتـجـه إلى إحـياء عقـيـدة التـوحيد الـخـاصـة » كما تصورها المعتزلة .

وابن تومرت إنما رأى أن يجعل مبدأ التوحـيد عند المعـتزلة أساسا راسـخا فى عقـيدة الموحدين ، وأراد به - كـما أراد المعتزلة - تنزيه الله عن الشبه بالمخلوقين تنزيها يحتم تأويل الآيات القرآنية التى يدل ظاهرها على التـجسـيم ، مثل آية سـورة الأعـراف : ( اسـتـوى على العـرش ) ، ويأخـذ الأشـعـرية - فى القـرن الرابع الهجرى - برأى المعتزلة فى تنزيه الله عن الشبـه بالمخلوقين . ولعل ذلك مـا جعل ابن خلدون وكثيراً من مؤرخى ابن تومرت ، يظنون أنه كان يعتنق المـذهب الأشعرى ، والمـعـتزلة هم الـذين اتخذوه مـبـدأ فى

عقـيدتهم ، وفسروه الـتفسيـر السالف ، وتعمقـوا فى تحليله ودلالته ، وأولوا على أساسه - كما ذكرنا - الآيات القرآنية التى يدل ظاهرها عـلى التـجـسـيم ، ومنهم استـعاره ابن تومـرت ، بنفس هذه الدلالة الخاصـة ؛ يدل على ذلك بوضـوح فصل عقده فى كتابه : أعز ما يطلب « بعنوان : « توحيـد البارى سبـحانه » ، يمضى فـيه بهذه الصورة :

« لا إله إلا اللـه ، الذى دلت عليـه الموجـودات ،وشهدت عليه المـخلوقات .. من غير تقييد ولا تخصيص بزمان ولا بمكان ولا جهة ، ولا حد ، ولا جنس ، ولا صـورة ، ولا شكل ، ولا مقـدار ولا هيـئـة ،ولا حـال .. صَمَـدٌ لا يتـقـيـد بالكيفية، عزيز لا يتقيد بالمثلية ، لا تحده الأذهان ولا تصـوره الأوهـام ولا يتـصف بالتحـيز والانتـقال ، ولا يتـصف بالتغـير والزوال ، لا يقال متى كان؟ ولا أين كان؟ ولا كيف كان؟ كـان ولا مكان ، كـوَّن المكان ، ودبَّـر الزمان ، لا يتقيـد بالـزمان ولا يتخـصص بالمكان ، لا يلحـقه وهم ولا يكيِّفه عقل ؛ ( ليس كمثله شىء وهو السميع البصير ) .

وواضح كأنه أحد المعتزلة ، يفسر ما يراد بمبـدأ التوحيـد فى عقيـدته ، وبهذا المعنى أطلق ابن تومـرت على أتباعه اسم المـوحـدين ، ليهـاجم بقـوة المـرابطين وفـقهاءهـم ، وماينـى يهـاجمهم فى كتابه « أعـز مـايطلب » كـقوله : أمـر رسـول ﷺ بمـخـالفـة أهل الـبـاطل فى زيهم وأفعالهم وجميع أمورهم فى أخبار كثيرة ، قـال :خـالفـوا اليـهـود ،خـالفـوا المـشركيـن،خالفوا الـمجوس ،وكـذلك المجـسمـين الكفار، ويفتح فـصلا لبـيان وجوب جهاد المرابطين لإيمانهم بالتجسيم ، ويدعوهم دائما مـجسمة كـفارا وتابعه فى هذه التهمة المستشرقون مثل : بروكلمان ، فى كـتابه تاريخ الشـعوب الإسـلاميـة ، ص٣٢٥ .ولم يكونوا - ولا كـان فقـهاؤهم- مجسمة،وإنما كانوا سلفيين مثل علماء السلف يؤمنون بتنزيه الله عن الشـبه بالمخلوقات ،

ولا يحلُّون لأنفسهم تأويل الآيات التى يدل ظاهرها على التَّجسيم- إذ يؤمنون بها، كما وردت ، ولا يؤولونها ؛ لأن التأويل عرضة للخطأ · واستغل ذلك ابن تومرت، فسماهم مجسِّمةً وكفارا ، وبذلك استحل حربهم ورفع أيديهم عن الحكم ، وادَّعى لنفسه وأتباعه أنهم هم وحدهم الموحدون ، بمعنى التوحيد عند المعتزلة ، وهو تنزيه الله عن التجسيم مع تأويل الآيات التى يفيد ظاهرها التجسيم ·

وهذا الأساس : أساس التوحيد الذى اقترضه لعقيدة الموحدين من المعتزلة وشوش به على المرابطين ، وادعى به أنهم مجسمة لله كفرة ، وتجب حربهم ، ودعا به إلى الجهاد ضدهم ، اقترض معه من المعتزلة مبدأ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وجعله أساسا مهما من أسس عقيدة الموحدين ، وكان قد أعلنه مبكرا فى عودته من العراق وأثناء رحلته من الإسكندرية إلى فاس، فإنه لم ينزل بلدة مغربية ورأى بها مناكر إلا حاول تغييرها ، وفى فاس أخذ يمشى فى الأسواق يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويكسر المزامير وآلات اللهو ، ويريق دنان الخمر كلما وجدها · وانتقل إلى مراكش ، وغير بها المناكير على عادته ، ولقى بالمسجد الجامع أمير المسلمين رئيس دولة المرابطين على بن يوسف بن تاشفين ، فوعظه وأغلظ له القول ، فاستدعاه إلى مجلسه ليعرف شأنه ودعوته ضد المناكير فقال له : أنا رجل فقير طالب الآخرة ولست بطالب دنيا ولا حاجة لى بها ؛ غير أنى آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر ، وأنت أولى من يفعل ذلك ؛ فإنَّك المسئول عنه وقد ظهرت بملكك المنكرات وفشت البدع ، وقد أمرك الله بتغييرها ، إذ لك القدرة على ذاك ، وقد عاب الله قوما تركوا النهى عن المنكر ، فقال تعالى: (( كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون ) ، فأمر على بن يوسف بإحضار الفقهاء لمناظرته فأفحمهم وظهر عليهم ، وخرج من مجلسه ، وارتحل إلى ديار قومه فى

هرغـة وإلى السـوس ونزل تينملل ، وهو يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر · وأخذ يطعن جهـرا - بعد أن كـان يطعن سرا - فى المرابطين وأنهم مـجسمة كـفار ، وأن غزوهم واجب ، بل أوجب من غزو الروم والمجوس لأنـهم مجسمة كـفار ، ولأنهم يحلون المنكرات ويفسحون لشـيوعها بين رعيتهم فى مـختلف بلدانهم ، وهى تهمة بالغ فيـها ابن تومـرت ، لأنه لم يؤثر عن فقـهاء المرابطين أنهم أحلوا الخـمر أو أى منكر ، غـيـر أن ابن تومـرت أشـاع ذلك وجعله باعثا قـويا لحرب المرابطين وخلع طاعتهم بـجانب ما أشاع عليهـم من تهمة التجسيم ، ويفتح لوجوب جهادهم بسـبب ذلك فصولا فى كتابه « أعز ما يطلب » ·

ومع أن الذى أوعـز إليه بالتـهمتـين المـبدآن الاعتـزاليان : الأمـر بالمـعروف والنهى عن المنكر ؛ والتوحيد ؛ بمعنى أن الله - جل شـأنه - لايحيط به زمـان ولا يحنصره مكان ، ومـع ذلك كان يشـيع - على مايقـال - أنه على مذهب الأشـاعرة المتـوسطين بين مذهب السـلف الذى كان عليه فقهاء المـرابطين ومذهب المعتزلة ، وفى رأيى أن الذى دفـعـه إلى القـول بأنه على مذهب الأشاعـرة ، أنه كان المذهب الشائع بتـونس والبلاد المغربيـة منذ القرن الخامس الهجرى · ونجد ابن حزم يخصه بجزء فى كتـابه الفصل فى الملل والأهواء والنحل ، وكـان قـد شـاع فى بغـداد والمشـرق وظهر على مذهب المعـتزلة ، فـرأى لمصلحـة عقـيـدته أن ينتسب إليـه وخاصة أنه وجد الأشعرى، إمام المذهب ، يتفق مع المعـتزلة - مستضـيئا بهم - فى تأويل الآيات القـرآنيـة الـتى يدل ظاهرها على تجسـيم الذات العلية ، فلـم ير بأسا من أن يعلن أنه على مذهب الأشعرى ·

وتنبه المراكشى فى كـتابه « المعجب فى تلخـيص أخـبـار المـغـرب » إلى أنه خالف الأشعرية فى إثبات الصفات للذات العلية ووافق المعتزلة فى نفيها · وللّه فى القرآن الكريم سبع صفات : الحياة والقدرة والعلم والإرادة والسمع والبصر والكلام ،

فتساءل المعتزلة ؛ هل هذه الصفات زائدة عن الذات أو هى عين الذات ، أما الأشعرية وغيرهم من المتكلمين فقالوا : إنها زائدة عن الذات ؛ أما المعتزلة فدفعهم اعتقادهم بالتوحيد - بالمعنى الذى ذكرناه - وأن الله واحدٌ أحدية مطلقة، وليس له كثرة جسمية ولا معنوية ؛ إلى أن يذهبوا إلى أن صفات الله المذكورة هى عين ذاته ،لا زائدة عن ذاته ، فالله عالم قادر سميع بصير بذاته ، لابعلم وقدرة وسمع وبصر، زائداً ذلك كله على ذاته مثل الإنسان ، لما يقتضى ذلك من إثبات الجسمية عليه وهو منزهٌ عنها ، وأيضا فإن القول بزيادة الصفات على ذاته يؤدى إلى نوع من التعدد فى الذات الإلهية ، إذ تكون بجانب الذات صفات إلهية متعددة زائدة عليها . وأخذُ ابن تومرت ، بفكرة نفى الصفات عن الذات الإلهية عن المعتزلة ، دليل قوى على ماقلناه من أنه أخذ فكرة التوحيد عنهم بمعناها الذى أوضحناه والذى يترتب عليه نفى الصفات عن الله وأنها عين ذاته.

**دكتور شوقى ضيف**
**نائب رئيس المجمع**

# المصادر


- أعز مايطلب ، لمحمد بن تومرت ( مهدى الموحدين ) .
- الجزء السادس من تاريخ ابن خلدون .
- المعجب فى تلخيص أخبار المغرب، للمراكشى .
- روض القرطاس لابن أبى زرع .
- نظم الجمان لابن القطان ؛ ( تحقيق الدكتور محمود مكى ) .
- الملل والنحل للشهرستانى .
- الفصل فى الملل والأهواء والنحل لابن حزم .
- تاريخ الشعوب الاسلامية،لبروكلمان ، ( نشر دار العلم للملايين ) .